حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحفُوظَة

الطبعة الثالثة

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

الفضيلة الإسلامية

الإمام المرجع
السيد محمد الشيرازي
دام ظله

الجزء الأوّل

مقدمة الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله كما هو أهله والصلاة والسلام على سيد بريته محمد وآله الطاهرين

وبعد : هذا شطر من أخلاق الاسلام ، التي ينبغي ان يتحلى بها المسلم انتزعناها عن الكتاب الحكيم والسنة الطاهرة رغبة في نشر الفضيلة ورجاء تقويض دعائم الرذيلة والله المستعان .

المؤلف

الرُّوحَ وَالبَــدَنُ

الانسان له روح وله بدن ، والأول مصدر العلم والفضيلة ، والرضا والغضب ، والحزن والسرور ، والجبن والشجاعة ، والسخاء والبخل . . . وما اليها . . .

والثاني مصدر الادراك والذوق ، والسمع والبصر، والشباب والهرم ، والصحة والسقم وما اليها . . .

ولكل من هذين إستقامة وانحراف : فإنحراف الجسد المرض واستقامته العافية ، وانحراف الروح البخل والجبن . . . وما اليها واستقامته الكرم والشجاعة . . وما اليها .

وكما أن بدن الانسان لا يقوم إلا بالوقود ، من أكل وشرب وهواء وضوء . . .

كذلك روح الانسان لا يقوم ، إلا بعلم وعدل ، ومروءة وفضيلة . .

وكما ان المريض يحتاج الى الطبيب الجسماني وإلا هلك . .

كذلك المريض النفسي يحتاج الى الطبيب الروحاني ، وإلا هلك

و (الأخلاق) إنما وضعت لاصلاح الروح ، كما ان (الطب) إنما وضع لإصلاح الجسم .

فعلينا إذاً أن نزوِّد أنفسنا بالوقود الخُلُقي ، كما نزوِّد أجسامنا بالوقود البدني .

وعلينا ان نعالج روحنا المريض ، كما علينا ان نعالج جسمنا المريض .

الفضيلـــةُ والرذيلة

لكل شيء كمية محدودة من الصلاحية ، ان تجاوزها كان وبالاً عليه ، مثلاً : من يكون اكله رغيفاً من الخبز ، إن تجاوزه الى رغيفين كان الرغيف الثاني موجباً لفساد معدته وربما أودى بحياته ، وان تجاوز الرغيف ـ في طرف القلة ـ بأن تناول نصف الرغيف ، أوجب ذلك ضعفاً في بدنه وربما آل به الأمر الى المرض . . . وهكذا . . وهكذا .

والروح ليس بدعاً من الأمور ، فله ميزان خاص وقسطاس مستقيم ، ان تعداه الشخص أوجب ذلك اختلالاً في توازنه ، وخذ مثلاً : يحتاج الشخص الى قدر من الشجاعة لمواجهة مصاعب الدهر ومتاعبه وتأمين حياته قبال الكوارث ، فإن زادت الشجاعة الى القدر المعين كان ذلك (تهوراً) يوجب اقتحام المهالك ـ بلا جدوى ـ ، وان نقصت عن القدر المعين كان (جبناً) يوجب الفرار عن المشاكل وفيه من المهانة والذلة والهلاك ـ احياناً ـ ما هو معلوم .

ان المتهور يلقي بنفسه في الهلكة ، والجبان يجبن عن فأرة وهرة .

إذاً فالفضيلة هي القدر المعين من الشجاعة .

وهكذا قُل : بالنسبة الى الجود ، والغَيْرة ، والحب . . وأضرابها .

ومن هذا نستنتج ان الفضيلة هي الحد الوسط بين الزيادة والنقصان وهذان هما الرذيلة .

وربما يكون قول نبي الأخلاق صلى الله عليه وآله وسلم : « خير الأمور أوسطها » إشارة الى هذا .

الرَّذِيلةُ تَحْجُــب . . .

المُتْرَف الذي لا يزال يدور في ترفه ، محروم عن لذة السيطرة على النفس .

والجبان الذي يَجبنُ حتى عن خياله ، محروم عمّا للشجاعة من فَضْيلة وَثَناء .

والبخيل الذي لا يعطي لفقير درهماً ، محروم من آثار الجود وفوائد السخاء .

وهكذا قل في كل رذيلة . . انها تَحجب عن الفضائل فتكون النفس بها كالغرفة المظلمة التي حُرِمَت من أشعة الضياء ، أو كالأرض القاحلة المحرومة من بهجة الرياض ، ونظرة الأزهار .

يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (**لولا ان الشياطين يحومون الى قلوب بني ادم لنظروا الى ملكوت السماوات والأرض**)(١) .

ان الجاهل ينظر الى الهواء ، لكن العارف يعلم انها مما ركبت والغبي يحسب الاعطاء سفهاً ، والعاقل يراه جوداً وفضلاً ، فشياطين المنع والبخل والاستهتار . . تمنع عن إدراك حقائق الاشياء مما خلقها الله في الكون من آثار الملك ولطيف الصنع ، انها تحتاج الى قطع دابر الشياطين حتى يرى الانسان حقائق العالمين .

يقول الله تعالى : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾[1] ان العلم سبيل من سبل الله ولا يحصل بمجرده ، انه يحتاج الى جهاده مع الجهل والايثار بسبيل من سبل الله ، ولا يحصل إلا بعد مجاهدة مع النفس الامارة بالبخل

وقل مثل ذلك في سائل الصفات .

وبهذا نفسر ما يقوله الرسول العظيم صلى الله عليه وآله وسلم : (**من عمل بما علم ورثه الله علم ما لا يعلم**)(٢) وهذا ناموس جارٍ في جميع الكون فإن الأمور كالحلقات يتبع بعضها بعضاً ، فمن عمل بما عرف ، بأن جعله في موضع اعتنائه ، ازداد شوقاً الى مجهول آخر وحيث عرفه وعمل به ازداد شوقاً الى مجهول ثالث وهكذا دواليك .

كما ان من تمرن على رفع عشرين كيلواً ، ازداد قوة حتى يتمكن من رفع ثلاثين وهكذا .

وليست الفضيلة مما تلقي على الانسان بمجرد التمني وإلا لأصبح كل فرد فاضلاً يقول الله : ﴿ **ليس بأمانكيم ، ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجزيه** ﴾(٢) .

بل إنما تحتاج الى تبصر في الأمور ، واكتساب دائم ودؤوب في التحصيل .

يقول الامام عليه السلام : « **ليس العلم بكثرة التعلم وانما هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء** » لكن لا يقذفه اعتباطاً كما لا ينمي الشجرة والأرض مالحة، والماء اجاج ، وإنما يقذفه في قلب من اخلص وجد واجتهد .

ويفسر ذلك الامام امير المؤمنين عليه السلام : « **ان من احب عباد الله اليه عبداً اعانه الله على نفسه فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف . فزهر مصباح الهدى في قلبه !** .

إلى ان قال :

. . . قد خلع سرابل الشهوات وتخلى عن الهموم إلا هماً واحداً ، انفرد به فخرج من صفة العمي ومشاركة أهل الهوى وصار من مفاتيح أبواب الهدى ومغاليق ابواب الردي ، قد ابصر طريقه ، وسلك سبيله وعرف مناره ، وقطع غماره واستمسك من العرى بأوثقها ومن الحبال بأمتنها ، فهو

من اليقين على مثل ضوء الشمس»(٣) .

وقال عليه السلام : «قد احيا قلبه وأمات نفسه حتى دق جليله ، ولطف غليظه وبرق له لامع كثير البرق فأبان له الطريق وسلك به السبيل وتدافعته الأبواب الى باب السلامة ودار الإقامة ثبتت رجلاه لطمأنينة بدنه ، في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وارضى ربه »(٤) .

انه كذلك . فالفاضل في قرار وراحة ، يرى طريق العمل ، ولا تزلق قدمه من الزحالف .

ويقول عليه السلام في كلام ثالث :

« هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعره المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون وصحبوا الدنيا بأبدان ارواحها معلقة بالمحل الأعلى»(٥) .

لا بأبدان البهائم همتها بطنها ، أما جارها الجائع أما قريبها الطاوي أما . . . أما . . فلا تشعر بذلك أبداً . بل ارواحها معلقة بالمحل الأعلى أعلى من ذلك مرات ومرات . . .

دُنيـا وَآخِـرَة

ينسلخ بعض الناس عن الدنيا فيترهب وينسلخ بعض الناس عن الآخرة فيلحد وكلاهما على خطأ .

ان البدن والروح إذا شبهها بالحصان وراكبه لم يك بعيداً والعناية من هذا الوصول الى دار آخرة هي جنات عرضها السماوات والأرض . وكما أن على الراكب ان يتعاهد أمر فرسه بالعلف والسقي حتى يوصله الى مقصده ، كذلك على الانسان ان ينظم امور جسده من أكل وشرب ونوم وراحة حتى يكمل فضائله استعداداً لمقصده .

فاولئك الذين يتكالبون على الحطام دون اعتناء بالناحية الروحية يكون حالهم كراكب اغفل نفسه ، واعتنى بأمر دابته ، حتى مات جوعاً وعطشاً . . وليس قوله ، إلا كما حكى الله عنه : ﴿ يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله ﴾[٣] .

واولئك الذين تبعد عيناهم عن البدن ويشتغلون بالآخرة المجردة ـ في زعمهم ـ يكون حالهم كالراكب اذا اغفل امر دابته واشتغل بنفسه فإنه ينقطع في الطريق ولا يصل الى المقصود وفي ذلك يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم (الراكب امنبت لا سفراً قطع ، ولا ظهراً أبقى)(٦) .

وفي الحديث : (ليس منا من ترك آخرته لدنياه ، وليس منا من ترك دنياه لآخرته)(٧)

العـــلمُ والجهـــلُ

قد يتعلم الانسان العلم ، لكن علمه يصبح وبالاً عليه لتجاوزه حدود العقل والعرف ، فلا يزال يستخرج اشياء - لا واقع لها - حتى يورده العلم المطاطي الى الوسوسة والسفسطة ، وهذا هلاك للروح والجسد والدنيا والآخرة .

وقد لا يتعلم شيئاً فيكون جاهلاً وهذا كأخيه في المصيبة ! إلا أن الجاهل الذي يعلم بجهله أهون مصيبة من الجاهل الذي يزعم نفسه عالماً ، وهذا ما يسمى بـ : « الجهل المركب » إذ من يعلم انه جاهل ، ربما يطلب العلم ويستمع الى كلام العلماء ، أما من يرى نفسه عالماً وهو جاهل فإنه لا يزال يرتطم في جهله ، وكلما أراد أحد انتشاله من هوته استكبر واعتلا ! فيبقى في الجهل .

وينقل عن عيسى المسيح عليه السلام انه قال : « اني لا أعجز عن معالجة الأكمة والابرص ، واعجز عن معالجة الأحمق » فإن الله سبحانه جعل مفتاح شفاء المرض في يده ، أما شفاء الحمقى فكان بالطرق العادية وانه مما يعجز عنه المسيح !

والعلم في نظر نبي الاسلام وأوصيائه افضل شيء حتى أنه ربما يدهش الانسان ما ورد في فضله على لسان الرسول والأئمة عليهم السلام لكن الحقيقة تنفي الدهشة ، أليس بالعلم تقوم الدنيا وتعمر الآخرة ؟ إذاً فمستوى العلم رفيع جداً وجداً .

واليك نبذ مما ورد في العلم يقول الله تعالى : ﴿ **هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون**﴾[٤] . انهم لا يستوون . وقال : ﴿ **ومن يؤتي**

الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾[٥] . واي خير اعظم من الحكمة التي هي معرفة وضع كل شيء في موضعه اللائق به ؟! وقال : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾**[٦] ضرب المثل عام اما التعقل فهو خاص بأهل العلم ان الجاهل يمر على الشيء مرور الكرام أما العاقل العالم فهو وحده يدرك المغزى المراد .

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (اللهم ارحم خلفائي ! قيل : يا رسول الله مَنْ خلفاؤك ؟ قال : الذين يأتون من بعدي ويروون حديثي وسنتي)(٨) أليس من يروي الحديث خليفة رسول الله ؟ وهل خليفته إلا من يعلم سننه ثم ينشرها بين الناس ؟ وهناك حديث قاله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لأبي ذر الصحابي الجليل بشأن العلم وربما يستغربه من لا خبرة له : **(أما والعلم هو اساس الاجتماع والتمدين ، وبه تناط سعادة الآخرة)** فلا غرابة فيه وان كانت الارقام كبيرة جداً وجداً .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبي ذر : **(جلوس ساعة عند مذاكرة العلم أحب الى الله تعالى من قيام الف ليلة يصلي في كل ليلة الف ركعة وأحب اليه من الف غزوة ومن قراءة القرآن كله اثني عشر الف مرة ، وخير من عبادة سنة صام نهارها وقام ليلها ، ومن خرج من بيته ليلتمس باباً من العلم كتب الله عز وجل له بكل قدم ثواب نبي من الأنبياء وثواب الف شهيد من شهداء بدر)** (٩)...

وهنا ينبغي ان نقف قليلاً ثم نعود الى الحديث .

ان تراب قدم مبتغي العلم تراب قدم نبي وتراب قدم الف شهيد من شهداء بدر ، فلو اخذنا ان نبياً تخطى خطوة واحدة في سبيل العلم كان خطوة هذا الطالب تعادلها وكذا خطى الف شهيد ، أليس بالعلم يحفظ تراث الأنبياء وبالعلم يحفظ ما قصده الشهداء من إعلاء كلمة الله ورفاه البشر وسعادته ؟ إذاً ليس ذلك غريباً .

وكذا الأرقام التي ذكرت للعبادات ان العبادة بدون العلم مثلها مثل ما يصنعه الحيوان انه لا قيمة له ، أما بالعلم فهو ذو قيمة كبيرة فالعلم أحب من العبادات الكثيرة .

واستطرد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في حديثه يقول : (. . . **واعطاه الله بكل حرف يسمع أو يكتب مدينة في الجنة وطالب العلم يحبه الله وتحبه الملائكة والنبيون ،و لا يحب العلم إلا السعيد وطوبى لطالب العلم والنظر في وجه العالم خير من عتق الف رقبة ومن احب العلم وجبت له الجنة ، ويصبح ويمسي في رضا الله ولا يخرج من الدنيا حتى يشرب من الكوثر ويأكل من ثمرة الجنة ولا يأكل الدود جسده ويكون في الجنة رفيق خضر عليه السلام**)(١٠)

ان العالم الذي كان لعلمه وزن عند الله تعالى لا يأكل جسده الدود ، أما كل عالم فلا ، ومن هذا السياق يعلم ان هذه المثوبات إنما هي لبعض العلماء

قال أمير المؤمنين عليه السلام : « **أيها الناس اعلموا ان كمال الدين طلب العلم والعمل به ألا وان طلب العلم أوجب عليكم من طلب المال ، ان المال مقسوم مضمون لكم ، قد قسمه عادل بينكم وضمنه وسيفي لكم ، والعلم مخزون عند أهله قد أمرتم بطلبه من أهله فأطلبوه** »(١٠) أرأيت حياً بدون رزق ؟ أما الجهال فكثيرون فالرزق مقسوم يطلبه كل احد حتى ينال حصته اما العلم فهو خاص لا يطلبه إلا البعض وهذا هو الفارق الذي يشير اليه الحديث .

وقال عليه السلام : « **إذا مات مؤمن وترك ورقة واحدة ، عليها علم كانت تلك الورقة ستراً بينه وبين النار واعطاه الله بكل حرف عليها مدينة اوسع من الدنيا سبع مرات** »(١١) .

وما احوج الانسان الى مدن كثيرة هناك انه يصبح ملكاً ـ كما في الحديث ـ وخدمه وحشمه الملائكة ، وهل للملك ارتواء من سعة البلاد وكثرة

المدن ؟ .

وقال الامام زين العابدين عليه السلام : « **لو يعلم الناس ما في طلب العلم ، لطلبوه ولوبسفك المهج وخوض اللجج** »(١٢)

وقال الامام الباقر عليه السلام : « **عالم ينتفع بعلمه افضل من سبعين الف عابد** »(١٣) ان الكليني والصدوق والشيخ والمفيد والمرتضى واضرابهم لا يقاسون بملء الدنيا عُبَّاد ، فالعباد ولو كانوا ملايين يذهبون ، ولا ينتفع بهم ، أما هؤلاء فهم نشروا العلم في ملايين وملايين وملايين . . فلو كان احدهم افضل من سبعين الف عابد لم يكن ببعيد .

ويروي الامام الرضا عليه السلام عن آبائه (ع) عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال : (**طلب العلم فريضة على كل مسلم ، فأطلبوا العلم في مظانه واقتبسوا من أهله ، فإن تعلمه ـ لله ـ حسنة وطلبه عبادة والمذاكرة به تسبيح ، والعمل به جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة الى الله لأنه معالم الحلال والحرام ومنار سبيل الجنة ، والمؤنس في الوحشة ، والصاحب في الغربة والوحدة ، والمحدث في الخلوة والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الاعداء ، والزين عند الاخلاء يرفع الله به اقواماً ويجعلهم في الخير قادة ، تقتبس آثارهم ويقتدى بأفعالهم وينتهى الى آرائهم ، ترغب الملائكة في خلتهم ، وبأجنحتها تمسحهم ، وفي صلاتها تبارك عليهم ، ويستغفر لهم كل رطب ويابس ، حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه**)(١٤) .

ان العلم حياة القلوب من الجهل ، وضياء الأبصار من الظلمة وقوة الابدان من الضعف يبلغ بالعبيد منازل الاخيار ومجالس الابرار والدرجات العلى في الآخرة والاولى ، الذكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام ، به يطاع الرب ويعبد ، وبه توصل الارحام ويعرف الحلال والحرام ، العلم أمام والعمل تابعه يلهمه السعداء ويحرمه الاشقياء فطوبى لمن لم يحرمه الله من حظه .

إذاً : على الانسان ان يتعلم ويتعلم . . حتى تبدو له آفاق جديدة من المعرفة ، ويرتقي في مراقي رفيعة من الادراك ، والعالم بقدر علمه تكون سعة نفسه ، ورحابة ذهنه ، فالجاهل مطبق الفؤاد كالأعمى الذي لا يبصر .

المُعلّم والمُتعلم

العلم فضيلة ، والفضيلة لا تكون فضيلة إلا إذا أريد بها ذاتها ، أما لو أريد بها غيرها بأن جعلت قنطرة الى لذة عابرة ، أو شهوة طارئة أو مال أو جاه . . فهي بالرذيلة أشبه . أليس الجود حسناً ؟ ومع ذلك فإذا أراد المنفق غير الجود ذاته بأن أراد مدحاً أو شهرة أو ما اليهما أنقلب الجود رذيلة بعيدة عن القيم الانسانية والمثل العالية .

وهكذا العلم ، فمن تعلم لتكمل نفسه وليخدم الناس أو ما اشبه ، فهو حقاً طلب العلم لذاته وله من الله المثوبة ، ولدى الناس الذكر الحسن أما لو طلبه لجاه أو مال ، أو مراء أو مباهاة فيكيل له الناس الاهانة والازدراء ، ويجزيه الله الجزاء السيء .

قال الامام الباقر عليه السلام : « **من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يمادي به السفهاء ، أو يصرف به وجوه الناس فليتبوأ مقعده من النار ان الرياسة لا تصلح إلا لأهلها**»(١٥) . فالعلم المراد به المباهاة والمماراة ، والجاه ، لا يؤهل الانسان للرئاسة ، انه بالعكس عن ذلك يبعد عن هذا المقام فالناس تبع لكل متواضع مجامل ، لا كل متكبر مباهٍ . . .

وقد قسم الامام الصادق عليه السلام طلبة العلم الى ثلاثة أقسام ، بَيَّنَّ علائم كل واحد كي لا يغتر الناس بمن جعل صدره صندوق الكتب وهو فارغ عن بهاء العلم وفضله ، ويكون حاله حال من حفظ كتاب البخاري فقيل لأحد العلماء : ان فلاناً حفظ البخاري ، قال : ازدادت نسخة في البلد ! يريد ان حفظه إياه ليس إلا كنسخة مطبوعة وما قيمة النسخة أنها على اكثر الفروض ثلاثة دنانير أو ما يقاربها .

قال عليه السلام : « طلبة العلم ثلاثة ، فأعرفهم بأعيانهم وصفاتهم ، صنف يطلبه للجهل والمراء ، وصنف يطلبه للاستطالة والختل ، وصنف يطلبه للفقه والعقل .

فصاحب الجهل والمراء : مؤذٍ ممارٍ متعرض للمقال في اندية الرجال بتذاكر العلم وصفة الحلم وقد تسربل بالخشوع ، وتخلى من الورع فدق الله من هذا خيشومه وقطع منه حيزومه .

وصاحب الاستطالة والختل : ذو خب وملق ، يستطيل على مثله من أشباهه ، ويتواضع للأغنياء من دونه ، فهو لحلوانهم هاضم ، ولدينهم حاطم فأعمى الله على هذا خبره وقطع من آثار العلماء أثره .

وصاحب الفقه والعقل ذو كآبة وحزن وسهر ، قد تحنك في برنسه وقام الليل في حندسه ، يعمل ويخشى وجلا داعياً مشفقاً مقبلاً على شأنه عارفاً بأهل زمانه مستوحشاً من اوثق اخوانه فشد الله من هذا اركانه وأعطاه يوم القيامة امانه»(١٦) .

ونتوقف عند هذا الحديث ـ لا للشرح فشرحه طويل ـ بل لأن نقول : ان من الظريف ان الناس بطبيعتهم يعرفون هذه الاقسام فيعاكسون الأولين ويلتفون على القسم الثالث ومن نظر الى العلماء في كل زمان رأى صدق ما ذكرناه .

وكفى هذا خزياً للأولين ورفعة وسمواً للثالث !

ثم ان العلم مهما كان نوعه فإنه يحتاج الى العمل بخط مستقيم لا غير ، وإلا فسرعان ما يذهب العلم وتبقى الحسرة ،مثلاً :علم الطب والهندسة والرياضيات وما اليها . . . تحتاج الى اعمال مباشرة،وعلم اصول الدين والحكمة والفلسفة ونحوها تحتاج الى الممارسة والتكرار والعمل بمقتضاها ، فالعالم ينبغي له ان يراعي هذا الجانب المهم من العلم .

قال الامام الصادق عليه السلام : « العلم مقرون الى العمل من علم